جامعة المنصورة
كليـة الآداب

التعاون التخاطبي في حديث (متى الساعة؟) مقاربة تداولية

إعـــداد

د. إيهاب سعد شفطر

أستاذ اللغويات المساعد

بكلية الآداب- جامعة كفر الشيخ

مجـلة كلـية الآداب – جامعـة المنصـورة

العدد الثالث والسبعون – أغسطس ٢٠٢٣

التعاون التخاطبي في حديث (متى الساعة؟)
مقاربة تداولية

د.إيهاب سعد شفطر

أستاذ اللغويات المساعد

بكلية الآداب– جامعة كفر الشيخ

ملخص البحث

إن نجاح الخطاب وتحقيقه مقصده وبلوغه هدفه؛ يتوقف على حدوث التعاون بين المتكلم والمخاطَب، ويكون ذلك من خلال حرصهما على إنجاح الخطاب الذي يستدعي أن يقوم كل منهما بدوره فيه، وأن يبذلا ما بوسعهما في سبيل تحقق ذلك، وأن يكون ذلك متمكنا من نفسيهما معا، فيكون إنجاح الخطاب هدفا للمرسل والمتلقي معا، يبدي كل منهما رغبته الأكيدة في ذلك، ويضطلع بما يترتب عليه، ويتطلبه.

وهذا البحث يعنى بدراسة التعاون التخاطبي في حديث (متى الساعة؟) في ضوء القواعد التخاطبية المقررة في (مبدأ التعاون) عند غرايس. حيث تكرر هذا السؤال على ألسنة المخاطبين في زمان النبي (ﷺ) عن موعد قيام الساعة، وقد تعددت إجابات النبي (ﷺ) للسائلين عن هذا السؤال، على الرغم من عدم تملكه إجابة مباشرة له، فقد اختص الله (ﷻ) ذاته بموعد الساعة، ويدور البحث حول توجيه تلك الإجابات المتعددة غير المباشرة في ضوء التعاون التخاطبي، وكيف تحقق التعاون في ذلك الخطاب على الرغم من ذلك؟. وقد جاء البحث في تمهيد، ومبحثين، وخاتمة.

الكلمات المفتاحية: (التعاون التخاطبي– مبدأ التعاون– متى الساعة– الحديث النبوي– التداولية).

Abstract:

The success of the discourse, its achievement, and its attainment of its goal. It depends on the existence of cooperation between the speaker and the addressee, and this is through their keenness to make the speech a success, which requires that each of them play their role in it, and that they do their best in order to achieve this, and that they are able to be themselves together, so that the success of the speech is the goal of the sender and the receiver together, Each of them shows that, and undertakes the consequences of it, and requires it.

This research is concerned with the study of conversational cooperation in the hadith (When is the time?) in the light of the conversational rules established in the (principle of cooperation) by Grace. As it was repeated on the tongues of the addressees in the time of the Prophet (peace be upon him) his question about the time of the Hour, and the answers of the Prophet (peace be upon him) to those who questioned this question were numerous, although he did not have a direct answer to this question, as the time of the Hour was singled out by God (peace be upon him). The research revolved around directing these multiple indirect answers in the light of conversational cooperation, and how cooperation was achieved in that discourse in spite of that? The research came in an introduction, two sections, and a conclusion.

Keywords: (conversational cooperation - the principle of cooperation - when is the hour - the hadith of the Prophet - paragmatics).

المقدمـــة :

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، أفصح الناطقين، وأبلغ المتكلمين، وخير المبلغِّين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد

فإن نجاح الخطاب وتحقيقه مقصده وبلوغه هدفه؛ يتوقف على وجود تعاون بين المتكلم والمخاطب، ويكون ذلك من خلال حرصهما على إنجاح الخطاب الذي يستدعي أن يقوم كل منهما بدوره فيه، وأن يبذلا ما بوسعهما في سبيل تحقق ذلك، وأن تكون تلك الرغبة متمكنة من أنفسهما، بحيث يكون إنجاح الخطاب هدف المرسل والمتلقي معا، يبدي كل منهما رغبته الأكيدة في ذلك، ويضطلع بما يترتب عليه، ويتطلبه. وقد تبلورت هذه الفكرة من خلال توظيف مبدأ من المبادئ التداولية، وهو المبدأ المعروف بـ

(مبدأ التعاون)، ذلك المبدأ الذي أسس له غرايس Grice، إنه المبدأ الذي يؤسس لعلاقة تفاعلية بين المتكلم والمخاطب، يتشاركان الأدوار معا، ويسهمان في الخطاب بالدرجة ذاتها.

وعلى الرغم من أن هذا المبدأ (مبدأ التعاون) لم يسلم من الاعتراض والانتقادات، حيث أُتهم بأنه لا يقدِّم نموذجا متكاملا لتحليل الخطاب وضبطه تداوليا، "وقد بَلَغَت الاعتراضات التي وردت على مبدأ التعاون والتعديلات التي أُدْخلت عليه بلغت النهاية، بيد أنه لا يستوقفنا من ذلك في هذا الموضع إلا اعتراض واحد، وهو أن مبدأ التعاون والقواعد المتولدة عنه لا تراعي إلا الجانب التبليغي من التخاطب"(١). ولكنه مع ذلك يبقى هذا المبدأ صالحا لدراسة الجانب التبليغي في الخطاب، إذا قصد دراسته وحده؛ من خلال القواعد التي تضمنها ذلك المبدأ، والتي يضمن تحققها ومراعاتها حدوث التعاون التخاطبي في أي خطاب، بل يمكن – وفقا لغرايس– حتى مع عدم مراعاة إحدى تلك القواعد عدم الإخلال بالمبدأ العام، بحيث إن الإخلال بقاعدة ما – إخلالا مسوَّغا– لا ينتقص من الرغبة في التعاون، والحرص عليه، والسعي إليه، وتحققه.

وليس من شك في أن خطاب النبي (ﷺ) مع المسلمين في زمانه كان خطابا تعاونيا تفاعليا، يتسم برغبة كلا الطرفين في إنجاح ذلك الخطاب، وتحقيق الفائدة منه. فقد كان الناس يسألون النبي (ﷺ) عما يريدون من أمور الدين والدنيا، وكان النبي (ﷺ) يجيبهم متى كان للسؤال جواب. وكان مما يسأل الناس عنه وقت قيام الساعة، حيث وجدنا تكرارا لسؤال الناس عن موعد قيام الساعة؛ فقد وجدنا كثيرين يتوجهون إلى النبي (ﷺ) بهذا السؤال المباشر (متى الساعة؟)، وهذا السؤال المباشر يتطلب جوابا مباشرا محددا بوقت قيام الساعة، "فالاستفهام عمل طلبي موجه إلى المخاطَب، ويسعى إلى حمله على الإجابة"(٢). لكن هذا لا يمكن تحققه في هذا السؤال، فالنبي (ﷺ) لا يعلم وقت قيام الساعة، إذ اختص الله (ﷻ) نفسه بعلم وقت قيامها.

ثم إننا وجدنا مع تكرار السؤال تنوعا في إجابات النبي (ﷺ) للسائلين، فلم تكن الإجابة عن ذلك السؤال واحدة، فالنبي (ﷺ) قد اختلفت إجابته عن السؤال ذاته وفقا لمقتضيات تخاطبية تتعلق بالسائل، والسياق الذي أُنْتج فيه الخطاب. وهنا برز سؤال البحث الأساس الذي تتأسس عليه أهميته: كيف يمكن توجيه إجابات النبي (ﷺ) غير المباشرة عن موعد الساعة، مع تعددها وتنوعها في ضوء التعاون التخاطبي؟، ولذا توجه البحث لدراسة حديث (متى الساعة؟) في ضوء مبدأ التعاون؛ هادفا إلى الإجابة عن الأسئلة التالية: كيف يكون الخطاب الذي لم يجد السائل فيه إجابة مباشرة (محددة) عن سؤاله خطابا تعاونيا؟، وما الذي دعا إلى اختلاف الإجابة في كل موقف؟ ولمَ اختيرت كل إجابة من هذه الإجابات في

١– د.طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ٢٩٩.

٢– د.شكري المبخوت، دائرة الأعمال اللغوية، ١٩٥.

سياقها الذي ظهرت فيه؟؛ ولذا جاء عنوان البحث: "التعاون التخاطبي في حديث متى الساعة؟ مقاربة تداولية؟". ثم تفرع ذلك العنوان بعد المقدمة إلى:

- التمهيد: الذي يعرف بمبدأ التعاون من جهة، ويوضح المقصود بحديث (متى الساعة؟) من جهة أخرى.
- المبحث الأول: التعاون المعياري في حديث متى الساعة؟ وأقصد به التعاون الناتج عن تحقق كل القواعد التي تحكم التعاون بين المتخاطبين. وهو التعاون الذي وجد السائل فيه إجابة عن سؤاله.
- المبحث الثاني: التعاون الاستلزامي في حديث متى الساعة؟ وأقصد به التعاون الذي يتحقق رغم عدم الالتزام بكل قواعد مبدأ التعاون، فالتعاون متحقق بطريق الاستلزام. ويتحقق ذلك عند عدم إجابة السائل عن سؤاله.

ثم الخاتمة التي ترصد نتائج البحث، وثبت بالمصادر والمراجع التي أمدت البحث من مدادها.

وبعد، فهذا اجتهاد يحتمل الخطأ والصواب، فإن كان من توفيق فمن الله وفتحه ومنِّه وكرمه، وإن كانت الأخرى فأسأل الله العفو، وحسبي أنه لم يكن عن قصد. والله أسأل أن يجنبني الزلل، فمنه العون، وبه التوفيق، ولله الحمد رب العالمين.

التمهيد

يوضح هذا التمهيد المقصود بمبدأ التعاون، وأهم القواعد الحاكمة له، ثم يعرِّج على المقصود بحديث (متى الساعة؟)، والروايات التي جاء بها.

أولا: مبدأ التعاون:

يمثل هذا المبدأ أول المبادئ التداولية الخاصة بالخطاب، ولعله أشهرها في الوقت ذاته، "فقد عرف المبدأ التداولي الأول للتخاطب باسم (مبدأ التعاون)، وورد نص هذا المبدأ في اللسانيات الحديثة عند الفيلسوف الأمريكي (بول غرايس) Grice... وصيغة هذا المبدأ (ليكن انتهاضك للتخاطب على الوجه الذي يقتضيه الغرض منه)، فبيَّن أن هذا المبدأ يوجب أن يتعاون المتكلم والمخاطب في تحقيق الهدف المرسوم من الحديث الذي دخلا فيه"[٣]. فهذا المبدأ قائم على "أن المتخاطبين عندما يتحاورون إنما يَقْبَلون ويَتَبِعُون عددا معينا من القواعد الضمنية اللازمة لاشتغال التواصل، فالشركاء في تفاعل لغوي يتقاسمون في العادة هدفا مشتركا، إذا انعدم لن يكون ثمة سبب للتواصل، وقد لا يتم التواصل على الأرجح"[٤].

٣- د.طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ٢٣٨. وينظر: العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ٩٧.

٤- فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ٨٤.

فيؤكد هذا المبدأ على أنه في كل حوار بين متخاطبين، يجب أن يتوافر لديهما الحرص على إنجاح الخطاب وإتمامه، بحيث يكون للمخاطَب الرغبة ذاتها التي عند المتكلم لإنجاح الخطاب، "فمبدأ التعاون يمكِّن المشارك في كل تحاور من أن يتواصل بافتراض أن المشارك الآخر متعاون، وعلى هذا فمبدأ التعاون وظيفته هي تنظيم ما تقوله على أنه يسهم في فعل الكلام، أو في دفع غرض الخطاب"(٥). فلن يكون الخطاب ناجحا إلا بالتعاون بين المرسل والمتلقي في إنجاحه، وبذل الجهد في سبيل ذلك، "فالتعاون سلوك وموقف اجتماعي لا يمكن الاستغناء عنه، حيث لا يوجد تواصل ناجح لأي حالة لا يوجد فيها تعاون مشترك، وتوافر رغبة ونية لدى المشاركين في الحوار في ذلك"(٦). ولذلك فإن التعاون مبدا يؤسس للتفاعل الناجح بين المتخاطبين، ويحرص عليه، ويؤكد على مراعاته، ويهيئ السبيل لتحقيقه، بحيث يكون "التفاعل التواصلي هو تبادل الأخذ والعطاء بين ممثلي الخطاب في سياق حواري يحكمه التعاون، وينبني على الملاءمة"(٧).

ولكي يضمن غرايس تحقق التعاون من خلال أساس يحتكم إليه، فقد حدد القواعد الخاصة بهذا المبدأ، وسماها قواعد التبليغ(٨). وهي أربع قواعد، يمكن بمراعاتها أن يتحقق التعاون بين المتكلم والمخاطب، وهي:

"١- قاعدة كمِّ الخبر: - لتكن إفادتك المخاطب على قَدْر حاجته.

- لا تجعل إفادتك تتعدَّى القدر المطلوب.

٢- قاعدة كيف الخبر: - لا تقل ما تَعْلَم كذبه.

- لا تقل ما ليس لك عليه بَيِنَّة.

٣- قاعدة علاقة الخبر بمقتضى الحال (المناسبة): ليناسب مقالك مقامك.

٤- قواعد جهة الخبر: - لتحذر من الالتباس. - لتحذر من الإجمال.

- لتتكلم بإيجاز. - لترتب كلامك"(٩).

فقد حاول (غرايس) من خلال هذه القواعد ضبط الحوار بين المتحاورين، والحرص على تحقيق غرض الخطاب، وضبط العوامل التي تساعد في جعله فاعلا ناجحا، بحيث تقوم كل قاعدة من قواعد المبدأ العام بمراعاة جانب من جوانب التبليغ المقصودة في الخطاب، "فقاعدة الكم تُعَدُّ حدًّا دلاليا القصد منه الحيلولة دون أن يزيد أو ينقص المتحاوران من مقدار الفائدة المطلوبة...وقاعدة الكيف القصد منها

٥- ليتش، مبادئ التداولية، ١١٠.

٦ – د.محند الركيك، إشكالية التواصل في المقاربة التداولية، ٢٠٣.

٧ – د.محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، ١٥.

٨ – ينظر: د.طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ٢٣٧.

٩ – د.طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ٢٣٨. وينظر: د.أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية، ٢٦-٢٧.

منع ادعاء الكذب أو إتيان الباطل، ولهذا يطلب من المتكلم ألا يورد من العبارات سوى التي وَقَف على دليل ليثبت صدقها. وقاعدة العلاقة (المناسبة) هي بمنزلة حدٍّ مقصدي الهدف منها منع المتكلم من أن ينزلق إلى مقاصد أخرى مخالفة لتلك التي استهدفها الخطاب، أي يُراعي علاقة المقام بالمقال. أما قاعدة الجهة فمدار اختلافها عن القواعد السابقة من حيث كونها لا ترتبط بما قيل، بل بما يراد قوله، والطريقة التي يجب أن يقال بها، والهدف منها تجنب الاضطراب والملل والإيجاز المخل في القول"[١٠].

ورغم أن هذه القواعد الأربعة متلاحمة من أجل تحقيق التعاون، لكن المتكلم قد يجد نفسه مضحيا بإحدى هذه القواعد في خطاب ما، إذا تعارضت مع قاعدة أخرى، بما لا يخل بالرغبة في التعاون، ولا الوصول إليه، "فإن غرايس يعترف بأن بعض هذه القواعد أهم من بعض...ومن مميزات هذه القواعد:

١- يتنوع استخدامها في سياقات مختلفة لاستعمال اللغة.

٢- تطبق بدرجات متنوعة...

٣- يمكن أن يدخل بعضها في نزاع مع الآخر.

٤- يمكنها أن تنتهك دون أن ينتقص ذلك من النشاط الذي تحكمه."[١١].

ثانيا: حديث (متى الساعة؟)

يقصد بحديث (متى الساعة؟) الحديث الذي كان النبي (ﷺ) يُسأل فيه عن موعد قيام الساعة، حيث تكرر سؤال الناس للنبي (ﷺ) عن الساعة وموعدها، من خلال هذا الاستفهام المباشر في قولهم: (متى الساعة؟)، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾[١٢]، وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾[١٣]، وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾[١٤].

وقد تعددت إجابات النبي (ﷺ) عن هذا السؤال وفق مقتضيات الخطاب، وأحوال السائلين، فتحصل من هذا وجود أربع روايات في الإجابة عن هذا السؤال، هي:

١- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: "كَانَ النَّبِيُّ (ﷺ) بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ. قَالَ: مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ. قَالَ: مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ

١٠- العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ٩٩-١٠٠.

١١- راموس، مدخل إلى دراسة التداولية، ٨٢.

١٢- (سورة الأعراف: من الآية ١٨٧).

١٣- (سورة الأحزاب: من الآية ٦٣).

١٤- (سورة النازعات: الآية ٤٢).

كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ. قَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ الْأَمَةُ رَبَّهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الْإِبِلِ الْبُهُمُ فِي الْبُنْيَانِ، فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ. ثُمَّ تَلَا النَّبِيُّ (ﷺ): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[١٥]، ثُمَّ أَدْبَرَ، فَقَالَ: رُدُّوهُ. فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ، جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ"[١٦].

٢- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: "بَيْنَمَا النَّبِيُّ (ﷺ) فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ، جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللهِ (ﷺ) يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ، فَكَرِهَ مَا قَالَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ. حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: أَيْنَ أُرَاهُ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: فَإِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ. قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ"[١٧].

٣- عَنْ أَنَسٍ (ﷺ): "أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ (ﷺ) عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ قَالَ: لَا شَيْءَ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ (ﷺ)، فَقَالَ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ"[١٨]. قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ (ﷺ): أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ.

٤- عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: "كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْأَعْرَابِ جُفَاةً يَأْتُونَ النَّبِيَّ (ﷺ) فَيَسْأَلُونَهُ مَتَى السَّاعَةُ؟، فَكَانَ يَنْظُرُ إِلَى أَصْغَرِهِمْ فَيَقُولُ: إِنْ يَعِشْ هَذَا لَا يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ"[١٩]. قَالَ هِشَامٌ يَعْنِي: مَوْتَهُمْ.

والملاحظ في هذه الروايات تعدد الإجابات في الإجابة عن السؤال ذاته، وهو ما يمكن توجيهه في ضوء السياق وملابساته، ومراعاة النبي (ﷺ) في كل خطاب للمخاطَب المقصود به، مع كون هذه الإجابات المتعددة كلها صحيحة، وصالحة في الإجابة عن السؤال، ومستندة إلى أصل تنطلق منه، وتتأسس عليه، وهو ما يتبين حال تحليل تلك الروايات في ضوء مبدأ التعاون.

١٥- (سورة لقمان: من الآية ٣٤).

١٦- البخاري، الصحيح، حديث رقم (٥٠). مسلم، الصحيح، حديث رقم (٩).

١٧- البخاري، الصحيح، حديث رقم (٥٩).

١٨- البخاري، الصحيح، حديث رقم (٣٦٨٨). مسلم، الصحيح، حديث رقم (٢٦٣٩).

١٩- البخاري، الصحيح، حديث رقم (٦٥١١). مسلم، الصحيح، حديث رقم (٢٩٥٢).

ومن اللافت للنظر في سؤال الناس النبي (ﷺ) عن الساعة استعمالهم اسم الاستفهام (متى). وقد ورد السؤال عن الساعة في القرآن الكريم باسم الاستفهام (أيان)، وذلك لاختصاصها – أيان– بالسؤال عن الأمور العظام، كما يقول الزركشي (ت٧٩٤هـ): "وفي (أيان) تعظيم، ولا تستعمل إلا في موضع التفخيم بخلاف (متى)، قال تعالى: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾[٢٠]، ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[٢١]، ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾[٢٢]، ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[٢٣]"[٢٤]. غير أن (متى) في الاستفهام أشهر من (أيان)، كما يظهر في قول ابن يعيش (ت٦٤٣هـ): "وأما (أيان)، فظرف من ظروف الزمان مبهم بمعنى (متى). والفرق بينها وبين (متى) أن (متى) لكثرة استعمالها صارت أظهر من (أيان) في الزمان"[٢٥]. ولعل هذا هو السبب في استعمالها على ألسنة السائلين في هذه الأحاديث.

كذلك من اللافت للنظر استعمال اسم (الساعة) من بين أسماء القيامة على تعددها وكثرتها[٢٦]، رغم أن أشهر الأسماء الدالة على اليوم الآخر هو (القيامة). ولعل السبب في استعمال اسم (الساعة) دون غيره من الأسماء الدالة على (القيامة) هو شهرة ذلك الاسم في زمان النبي (ﷺ)، أو لعل السبب في ذلك ورود اسم (الساعة) في أحاديث النبي (ﷺ) التي تختص بالكلام عن قيامها، وأشراطها، وما يسبقها من أحداث، فضلا عن استعمال القرآن الكريم لهذا الاسم – والله أعلم–.

المبحث الأول: (التعاون المعياري في حديث متى الساعة؟)

قصدت بالتعاون المعياري ذلك الذي تحققت فيه قواعد التعاون المقرَّرة، التي سبق ذكرها، إذ يكون التعاون نموذجيا إذا تحققت قواعده الأربعة التي قررها (غرايس)، وهي: الكم، والكيف، والعلاقة، والجهة. وقد تحقق ذلك بإجابة النبي (ﷺ) عن السؤال المقصود، ويكون هذا بإعطاء النبي (ﷺ) إجابة للسائل عن موعد الساعة. وقد ورد ذلك في روايتين للحديث، هما:

١– عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: "بَيْنَمَا النَّبِيُّ (ﷺ) فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ، جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللهِ (ﷺ) يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ، فَكَرِهَ مَا قَالَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ. حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: أَيْنَ أُرَاهُ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: فَإِذَا

٢٠– (سورة الأعراف: من الآية ١٨٧).

٢١– (سورة النحل: من الآية ٢١).

٢٢– (سورة الذاريات: من الآية ١٢).

٢٣– (سورة القيامة: من الآية ٦).

٢٤– الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ٢٥١/٤.

٢٥– ابن يعيش، شرح المفصل، ١٣٥/٣.

٢٦– ينظر في أشهر أسماء القيامة: د.عمر الأشقر، القيامة الكبرى، ١٢–٢١.

ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ. قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ"(٢٧).

٢- عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: "كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْأَعْرَابِ جُفَاةً يَأْتُونَ النَّبِيَّ (ﷺ) فَيَسْأَلُونَهُ مَتَى السَّاعَةُ؟، فَكَانَ يَنْظُرُ إِلَى أَصْغَرِهِمْ فَيَقُولُ: إِنْ يَعِشْ هَذَا لَا يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ"(٢٨). قَالَ هِشَامٌ يَعْنِي: مَوْتَهُمْ.

حيث نجد النبي (ﷺ) قد أجاب السائلين في هذين الموقفين، وذلك تحقيقا للاستجابة المنتظرة من طرح السؤال على المخاطَب، "فالتأثير الذهني المنتظر من الاستفهام هو استثارة قضية في عالم الخطاب، وذاكرة المخاطَب، وفي المعرفة المشتركة بينهما، ولهذا صور عديدة يصعب تحديدها على وجه دقيق، لذلك فإن التأثير السلوكي الأساسي هو تقديم الجواب المطلوب"(٢٩). مع الأخذ في الحسبان أن هذا السؤال له خصوصية، تقتضي إن أجيب عنه خصوصية في الجواب كذلك توافق طبيعته تلك.

فالتعاون التام بين المتكلم والمخاطب يقتضي أن يكون الجواب عن السؤال من المخاطَب مباشرا محدَّدا، بالقدر الذي يلبي حاجة السائل، ويشبع رغبته في سؤاله عنه، بحيث يقدم للسائل المعلومة التي أراد معرفتها وبحث عنها. فإذا نظرنا إلى تحقق قاعدة الكم التي تقتضي أن تكون الإجابة على قدر المطلوب نجد لها تحققا جزئيا في هاتين الروايتين – ولا يمكن أن تتحقق كليا في هذا الخطاب-. ويتضح هذا إذا علمنا أن اسم الاستفهام (متى) يستعلم عن زمان محدد، يريد السائل تحديده من المخاطبَ، ويتطلع إلى أن يكون الجواب محدِّدا لهذا الزمان، ولكن كيف يكون ذلك؟ وزمان الساعة ووقت قيامها ليس معلوما للنبي (ﷺ)، لذلك لا يمكن أن يكون التعاون في هذا الموقف – من حيث الكم- تعاونا تاما بأي صورة من الصور، وهنا وجدنا النبي (ﷺ) في إعطائه السائل إجابة لم يعطها مباشرة مبينة للزمن على جهة التحديد، ولا بوقت معلوم، وإنما جاءت الإجابة بما هو معلوم للنبي (ﷺ) من أشراط الساعة وعلاماتها، وليس وقتها الدقيق، كما في: (إذا ضيعت الأمانة- إن يعش هذا لا يدركه الهرم).

وهنا يمكن أن نقول: إن قاعدة الكم قد تحققت في هذا الخطاب وفق هذه الملابسات، فقد تحققت في ضوء الحرص على إجابة السائل، ومراعاة نفسه المتطلعة إلى الجواب، مع ارتباط هذا بعدم تملك الإجابة التي يريدها حقيقة، وهي الوقت الحقيقي لقيام الساعة. فقد ورد الخطاب هنا محققا للقواعد التي يتأسس عليها إذا كان استفهاما، وهي القواعد التي تحكم الاستفهام، وتوجه المتكلم والمخاطب أثناء الخطاب، "فالمتكلم لا يمتلك الجواب الذي يجزم بصدقه، والمخاطب يمتلك الجواب المطابق (بحسب

٢٧- البخاري، الصحيح، حديث رقم (٥٩).

٢٨- البخاري، الصحيح، حديث رقم (٦٥١١). مسلم، الصحيح، حديث رقم (٢٩٥٢).

٢٩- د.شكري المبخوت، إنشاء النفي، ١٩٧.

اعتقاد المتكلم) لمصلحة المتكلم، والقاعدة التكوينية هي حمل المخاطب على تقديم الجواب المطلوب"[٣٠]. والحَمل المقصود هنا حمله تخاطبيا، بمجاراة المتكلم في الخطاب، وليس الحمل بمعنى الإرغام. فالنبي (ﷺ) كان يمكنه الامتناع عن الإجابة، دون لوم عليه في ذلك، كونه لا يعلم موعد الساعة، لكنه بإجابته (ﷺ) كان ساعيا لتحقيق التعاون مع المتكلم، مبديا الحرص عليه، متخذا السبل في الوصول إليه[٣١].

وتحقق قاعدة الكم بهذه الصورة الجزئية كان مرتبطا بالحرص على تحقق قاعدة الكيف التي تقتضي ألا يقول المتكلم غير الصدق، وألا يقول ما ليس له عليه دليل، "حيث إن مبدأي (الكم والكيف) غالبا ما ينافس أحدهما الآخر، فمقدار المعلومة التي يقدمها المتكلم محدودة مما يعلق عليها من أمل حتى يتجنب قول غير الصدق"[٣٢]. فلو أجاب النبي (ﷺ) أي إجابة تحدد وقتا معينا للساعة لكان هذا نقضا لمبدأ الكيف، وانتفاء لوجوده في هذا الخطاب، حيث إن ذلك سيتعارض مع تلك الآيات التي تنفي علم وقت قيامها عنه (ﷺ)، وتؤكد أنه لا يعلم وقت الساعة إلا الله (ﷻ)، ومنها قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾[٣٣]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[٣٤]. وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾[٣٥]. وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[٣٦].

فقد وجهت هذه الآيات وغيرها الجواب النبوي في الإجابة عن هذا السؤال إلى صورته التي ظهر عليها في هاتين الروايتين، إذ النبي (ﷺ) لا يمكن أن ينطق بما ليس له به علم، فهو (ﷺ) لا يتكلم بغير بينة، ولا يقول ما ليس له عليه دليل، إن خطابه (ﷺ) موجه في ضوء الوحي، ومحدد بحدود ما له به علم، فهو (ﷺ) ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[٣٧]. فكان الجواب المتحقق هنا ضمانا لتحقق قاعدتي الكم والكيف معا.

فقد كان الجواب في الحديث الأول هنا (إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة) جوابا عاما، حيث "أجاب النبي (ﷺ) بجواب عام دخل فيه تضييع الأمانة، وما كان في معناها مما لا يجري على طريق الحق، كاتخاذ العلماء الجهال عند موت أهل العلم، واتخاذ ولاة الجور وحكام الجور عند غلبة الباطل

٣٠- د.شكري المبخوت، دائرة الأعمال اللغوية، ١٩٨.

٣١- ينظر: العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ١١٤.

٣٢- ليتش، مبادئ التداولية، ١١٤.

٣٣- (سورة الأعراف: من الآية ١٨٧).

٣٤- (سورة لقمان: من الآية ٣٤)

٣٥- (سورة الأحزاب: من الآية ٦٣).

٣٦- (سورة فصلت: من الآية ٤٧).

٣٧- (سورة النجم: الآيتان ٣،٤).

وأهله"[٣٨]. ولذا ترتب على ذلك استيضاح السائل عن المقصود بإضاعة الأمانة، فسأل: (وكيف إضاعتها؟)، ففسَّر النبي (ﷺ) ذلك بقوله: (إذا وسد الأمر إلى غير أهله)، "وقوله: (إذا وسد الأمر) المراد به جنس الأمور التي تتعلق بالدين: كالخلافة والقضاء والإفتاء، ونحو ذلك. ويقال: أي بولاية غير أهل الذين والأمانات. ومن يعينهم على الظلم والفجور، وعند ذلك تكون الأئمة قد ضيعوا الأمانة التي فرض الله عليهم حتى يؤتمن الخائن ويخون الأمين، وهذا إنما يكون إذا غلب الجهل وضعف أهل الحق عن القيام به"[٣٩]. وهنا يكون جواب النبي (ﷺ) ليس موضِّحا لوقت قيام الساعة على جهة التحديد، بل إشارة إلى وقت تكون قد اقتربت فيه، ويكون المذكور أمارة من أماراتها، إذ إن غلبة الجهل، وضعف العلم من أمارات قيامها، كما ورد، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ): "إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَثْبُتَ الْجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا"[٤٠].

أما في الحديث الآخر فقد كان جواب النبي (ﷺ) فيه (إن يعش هذا – يقصد أصغرهم– لا يدركه الهرم حتى تقوم عليكم ساعتكم)، وقد فسَّر أكثر شراح الحديث المقصود بقول النبي (ﷺ) بأنه موت هؤلاء القوم، وليس القيامة الكبرى، حيث عني "بقوله: (ساعتكم). (موتهم) لأن ساعة كل إنسان موته: وهي الساعة الصغرى لا الكبرى التي هي بعث الناس؛ للمحاسبة، ولا الوسطى التي هي موت أهل القرن الواحد"[٤١]. غير أن هناك وجها آخر محتملا من قوله (ﷺ) (لا يدركه الهرم...)، وهو المعنى الذي أميل إلى أنه قصده (ﷺ) في هذا السياق، وهو المبالغة في قرب وقوع الساعة، وهذا ما ذكره ابن حجر (ت٨٥٢هـ) في قوله: "ويحتمل أن يكون المراد بقوله (ﷺ): (حتى تقوم الساعة) المبالغة في تقريب قيام الساعة، لا التحديد كما قال في الحديث الآخر: "بعثت أنا والساعة كهاتين"[٤٢]. ولم يرد أنها تقوم عند بلوغ المذكور الهِرَم، وهذا عمل شائع للعرب يستعمل للمبالغة عند تفخيم الأمر، وعند تحقيره، وعند تقريب الشيء وعند تبعيده فيكون حاصل المعنى أن الساعة تقوم قريبا جدا"[٤٣].

فتحديد قيام الساعة بموت أصغر هؤلاء القوم إنما قصد به تقريب وقت قيامها، والإشارة إلى قرب وقوعها، والنبي (ﷺ) يؤسس قوله هذا على ما ذكره القرآن الكريم بما يفيد اقتراب وقوع الساعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[٤٤]. وقوله تعالى:

٣٨– ابن بطال، شرح صحيح البخاري، ٢٠٦/١٠.

٣٩– العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ٧/٢.

٤٠– البخاري، الصحيح، حديث رقم (٨٠).

٤١– أبو زكريا الأنصاري، منحة الباري بشرح صحيح البخاري، ٤٧٨/٩. وينظر: النووي، شرح صحيح مسلم، ٩٠/١٨. ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ٥٥٦/١٠.

٤٢– البخاري، الصحيح، حديث رقم (٤٩٣٦).

٤٣– ابن حجر، فتح الباري، ٥٥٦/١٠.

٤٤– (سورة النحل: من الآية ٧٧).

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[٤٥]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾[٤٦]. وقوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾[٤٧]. فقد دلت تلك الآيات وغيرها على أن الساعة قريب، وأشار النبي (ﷺ) في حديثه المذكور (بعثت أنا والساعة كهاتين) إلى أن وقت الساعة قريب جدا، فيكون المقصود بقوله (ﷺ): (إن يعش هذا...) إلى أن الساعة قريب وقوعها، بحيث إنه أصغرهم لن يبلغ الهِرَم قبل قيامها.

وبهذا نجد أن الجواب النبوي في هذين الموقفين كان اشتراطا (إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة)، (إن يعش هذا لا يدركه الهرم حتى تقوم عليكم ساعتكم) توافقا مع حقيقة السؤال الذي وجه إليه (ﷺ)، مع رغبته (ﷺ) في منح السائل إجابة صادقة ملاءمة لعدم معرفته (ﷺ) بموعد قيام الساعة. ولعلنا نلاحظ هنا في قوله (ﷺ): (إذا ضيعت الأمانة، فانتظر الساعة) هكذا بالإفراد التخاطبي (فانتظر)، ولم يقل ذلك بصيغة الجمع (فانتظروا) مع الإقرار عقلا ومنطقا بأن السائل لن يكون حيًّا في ذلك الوقت، فلم كان التوجيه بلفظ (فانتظر)؟ ولعل ذلك إشارة منه (ﷺ) إلى أن الأهمية ليست في تحديد وقت الساعة، بل في مراقبة علاماتها وأماراتها، فالانتظار هنا مراقبة دقيقة لأحوال الناس وسلوكياتهم التي تدلل على قرب وقوع الساعة.

ولكن ما الذي دفع النبي (ﷺ) إلى الإجابة بهذه الطريقة؟، وهل كان يمكن أن يكون جوابه: (لا أعلم وقت قيامها)، – وهو ما ذكره (ﷺ) صراحة في موقف آخر– وهي الحقيقة المستقرة فيما يتعلق بوقت قيام الساعة. إن هذا سيقودنا للكلام عن القاعدة الثالثة وهي الملاءمة (المناسبة).

فيما يتعلق بالقاعدة الثالثة من قواعد التعاون، وهي الملاءمة التي تنص على (مناسبة المقال للمقام)، فقد كانت هي الأساس الذي تأسست عليه رغبة النبي (ﷺ) في إعطاء السائل إجابة عن سؤاله، حيث لوحظ أن السائل في الموقفين أعرابي، فقد ذُكر في الحديث الأول أن السائل أعرابي كما جاء في قول راوي الحديث سيدنا أبي هريرة (رضي الله عنه): (بينما النبي (ﷺ) في مجلس يحدث القوم، جاءه أعرابي، فقال: متى الساعة؟)، وفي الحديث الآخر تذكر أمنا السيدة عائشة – رضي الله عنها– أن السائلين كانوا أعرابا، وأن هذا سؤال تكرر منهم، وأن إجابة النبي (ﷺ) لهم كانت ثابتة، حيث قالت: "كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْأَعْرَابِ جُفَاةً يَأْتُونَ النَّبِيَّ (ﷺ) فَيَسْأَلُونَهُ مَتَى السَّاعَةُ؟، فَكَانَ يَنْظُرُ إِلَى أَصْغَرِهِمْ فَيَقُولُ: إِنْ يَعِشْ هَذَا لَا يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ"[٤٨].

٤٥– (سورة الأحزاب: من الآية ٦٣).

٤٦– (سورة الشورى: من الآية١٧).

٤٧– (سورة القمر: الآية ١).

٤٨– البخاري، الصحيح، حديث رقم (٦٥١١). مسلم، الصحيح، حديث رقم (٢٩٥٢).

والنص على أن السائل أعرابي له أثره في توجيه الخطاب، ووجود الإجابة في هذين الموقفين، حيث كان النبي (ﷺ) في خطابه الأعراب يراعي حالهم وثقافتهم التي نشأوا عليها، وما يعلمه (ﷺ) من طباعهم التي يغلب عليها الغلظة والطيش والجفاء. والأعراب اسم يطلق على سكان البادية، واحده أعرابي، وهو وصف مخالف لعربي، قال الأزهري (ت٣٧٠هـ): "رجل عربي إذا كان نسبه في العرب ثابتا وإن لم يكن فصيحا، وجمعه العرب...ورجل أعرابي بالألف إذا كان بدويا صاحب نُجْعة وانتواء وارتياد لكلأ، وتتبع لمساقط الغيث، وسواء أكان من العرب أم من مواليهم، ويجمع الأعرابي على الأعراب والأعاريب. والأعرابي إذا قيل له: يا عربي فرح بذاك وهش له، والعربي إذا قيل له: يا أعرابي غضب له..."[٤٩]. ففي قوله: (العربي إذا قيل له: يا عربي، غضب) يدل على ما يشمله هذا الوصف من صفات لا يحب العربي الاتصاف بها.

وقد أشار القرآن إلى طبيعة الأعراب على وجه العموم في قوله تعالى:﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾[٥٠]. والمعنى أنهم "أشد كفرا من أهل الحضر...وكانوا أشد كفرا ونفاقا؛ لتوحشهم، وطيشهم، واستيلاء الهواء الحار عليهم، فيزيد من تيههم، ونخوتهم، وفخرهم، وطيشهم وتربيتهم بلا سائس ولا مؤدب ولا ضابط، فنشأوا كما شاءوا لبعدهم عن مشاهدة العلماء ومعرفة كتاب الله (ﷻ) وسنة رسول الله (ﷺ)، ولبعدهم عن مهبط الوحي"[٥١]. ويأتي الكلام عن الأعراب في القرآن في غالب المواضع مشيرا إلى قسوتهم[٥٢].

إن هذه الطبيعة المعلومة للأعراب، تقتضي أن يكون الخطاب مناسبا ملاءما لهم، "فالمخاطَب صورة ينحتها المتكلم، ويبني انطلاقا منها نوعية علاقته بمخاطبه"[٥٣]. ولذلك فإن النبي (ﷺ) أجابهم بما يصلح لهم، ويوافق المعلوم عنهم، فكانت إجابته (ﷺ) دفعا للشك عن قلوبهم إن قال لهم لا أعلم موعدها، فأجابهم دون أن تتعارض إجابته (ﷺ) مع كونه لا يعلم موعد الساعة، "فإن النبي (ﷺ) قال ذلك للذين خاطبهم بقوله: (تأتيكم ساعتكم)، يعني بذلك موتهم؛ لأنهم كانوا أعرابا، فخشي أن يقول لهم: لا أدري متى الساعة، فيرتابوا، فكلمهم بالمعاريض"[٥٤].

ولعل أمنا السيدة عائشة – رضي الله عنها–، أرادت الإشارة إلى شيء من هذا في نصها على هذا الوصف الذي وصفت به هؤلاء الأعراب السائلين بأنهم (جفاة)، والجفاة الذين فيهم غلظة. قال ابن فارس

٤٩– الأزهري، تهذيب اللغة، مادة (ع ر ب)، ١٢٨/٢.

٥٠– (سورة التوبة: من الآية ٩٧).

٥١– أبو حيان، البحر المحيط، ٤٩١/٥.

٥٢– كما في قوله تعالى في الآيات: (سورة التوبة: الآيات ٩٨، ١٠١)، (سورة الفتح: الآية ١١).

٥٣– د.شكري المبخوت، إنشاء النفي، ٦٥.

٥٤– ابن حجر، فتح الباري، ٥٥٦/١٠.

(ت٣٩٥هـ): "الْجِيمُ وَالْفَاءُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ: يَدُلُّ عَلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ: نُبُوُّ الشَّيْءِ عَنِ الشَّيْءِ. مِنْ ذَلِكَ جَفَوْتُ الرَّجُلَ أَجْفُوهُ، وَهُوَ ظَاهِرُ الْجِفْوَةِ أَيِ الْجَفَاءِ. وَجَفَا السَّرْجُ عَنْ ظَهْرِ الْفَرَسِ وَأَجْفَيْتُهُ أَنَا. وَكَذَلِكَ كُلُّ شَيْءٍ إِذَا لَمْ يَلْزَمْ شَيْئًا، يُقَالُ جَفَا عَنْهُ يَجْفُو"[٥٥]. فهؤلاء الجفاة يناسبهم الإجابة عن السؤال، بل تناسبهم هذه الإجابة على وجه التحديد، إن النبي (ﷺ) يذكر لهم أن أصغرهم لن يهرم حتى تقوم الساعة، وهذا فيه ترقيق لقلوبهم، وحث لهممهم، ودفع لهم على التزام الطاعة، والاستعداد للآخرة التي تبدو قريبة، على عكس السائل الأول، فإنه – وإن كان أعرابيا–، يناسبه كذلك أن يجيبه النبي (ﷺ)، حتى لا يتشكك من عدم الإجابة، لكن لعله لم يبلغ درجة هؤلاء (الجفاة)، فمن الأعراب من قال فيهم الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾[٥٦]. مع الإشارة إلى قربها الشديد كذلك في إجابة النبي (ﷺ) له، ذلك القرب الذي يظهر في قوله (ﷺ): (فانتظر الساعة)، إذ إنه سيدرك ذلك، بحيث إن ضياع الأمانة سيكون في وقت قد يدركه ذلك الرجل، مما يلزمه وقتها أن ينتظر وقوع الساعة، وفي هذا ما يحفزه كذلك على الاستعداد لها، ومراقبة أمارتها التي ذكرها له النبي (ﷺ)، فيكون الانتظار المقصود هنا انتظار مراقبة، لا انتظار وقت، وهذا أليق بالمقام والسياق.

وفي السياق ذاته فإن جواب النبي (ﷺ) للأعراب الموصوفين بالجفاة كان جوابا ماديا معاينا مشهودا، وهو ذلك الصبي المشاهد منهم، الذي يمثل عمره ما تبقى حتى قيام الساعة، مما يجعلهم يترقبونها مع اشتداده، وبلوغه، فكأن النبي (ﷺ) أعطاهم مؤقتا يمكنهم به حساب ما يتبقى حتى قيام الساعة، ويجعلهم مع كبر الصبي واشتداده أكثر استعدادا للساعة وانتظارا لها، وترقبا لوقوعها، في حين كان الجواب للرجل الآخر جوابا غيبيا، متعلقا بشيء سيحدث وهو ضياع الأمانة، فأجاب النبي (ﷺ) كلا بما يلاءمه ويناسبه، ويصلح له، ولذا فإن اختلاف الجواب في الموقفين يفسَّر في ضوء السياق والمقام المتعلق بكلا الموقفين، "فالتغطية المقامية للحوار تساعد في تفسير الكثير من مجرياته ومساراته"[٥٧]. فتبقى أهم صور مراعاة الملاءمة، ومراقبة تحققها في الخطاب بحثا عن التعاون هي مراعاة المخاطب، وتقديم الخطاب الملاءم له، "فالتعاون مبدأ يجعل من الخطاب ملتصقا بظروف إلقائه الحقيقة التي تجعل من المتكلم يراعي حال مخاطبه، ومن ثم تحقيق التواصل الناجح"[٥٨].

وبالنسبة للقاعدة الرابعة من قواعد مبدأ التعاون، وهي قاعدة الجهة (الكيفية) التي تنص على التزام الوضوح، وعدم الالتباس، فهي متحققة بلا شك، إذ الغرض من هذا الخطاب هو إفهام المتلقي وإعلامه، ومن ثم جاء خطاب النبي (ﷺ) في الموقفين واضحا لا التباس فيه، بحيث يعيه المتلقي، ويفهم المقصود

٥٥– ابن فارس، مقاييس اللغة، (ج ف و)، ٤٦٥/١.

٥٦– (سورة التوبة: من الآية ٩٩).

٥٧– د.محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، ٨.

٥٨– د.يوسف رحايمي، مبدأ التعاون عند غرايس وتجليات حضوره عند السكاكي، ٧٣.

منه. فقد كان الغرض من الخطاب هو إيضاح قرب قيام الساعة لمن سأل عن موعدها، وقد بدا هذا في الموقفين، بحيث يعي السائل أن الساعة اقتربت.

ومن ثم فقد تحقق في هذين الموقفين تعاونا نموذجيا، حيث تحققت كل القواعد المحدَّدة للتعاون فيهما، وقد كان ذلك متوجَها إليه في ضوء الملابسات المحيطة بالخطاب، وأهمها طبيعة السائل الذي اقتضت مخاطبته بما يلاءمه ويصلح له، ولذلك أجاب النبي (ﷺ) السائلين بما تستريح له نفوسهم، وتطمئن به قلوبهم، دون أن يتسلل إلى أنفسهم شك إن أخبرهم النبي (ﷺ) بأنه لا يعلم وقت الساعة. ودون أن تكون الإجابة في الوقت ذاته غير مفيدة لهم. وهي المعادلة التي تمكن النبي (ﷺ) من تحقيقها في هذا الخطاب، إذ أعطى السائل جوابا مفيدا، رغم عدم تملكه الجواب الحقيقي والمباشر للسؤال المسئول.

المبحث الثاني: (التعاون الاستلزامي في حديث متى الساعة؟)

يقصد بالتعاون الاستلزامي ذلك الخطاب الذي يتحقق فيه التعاون، لكن مع عدم الالتزام التام بكل قواعد مبدأ التعاون، إنه التعاون الذي يتحقق برغبة المتكلم فيه وحرصه عليه، مع عدم وفائه بكل القواعد المتفرعة عنه، "فمبدأ التعاون يتفرع إلى سلسلة من القواعد التي على المتكلمين احترامها إذا كانوا يرغبون في أن يكون الحوار ذا فاعلية، غير أنه عندما لا يتم احترام واحدة من هذه القواعد، فعلينا افتراض أن لدى المتكلم سببا دفعه إلى ذلك، وبأنه لم يتم انتهاك مبدأ التعاون في خطوطه العريضة"(٥٩). إن الأمر مشروط هنا بالوفاء للمبدأ العام، والرغبة في تحققه، "بمعنى أن يكون المتكلم حريصا على إبلاغ المخاطب معنى بعينه، وأن يبذل المخاطَب الجهد الواجب للوصول إلى المعنى الذي يريده المتكلم"(٦٠).

فإذا حدث أن أهمل المتكلم قاعدة ما من قواعد مبدأ التعاون، مع ظهور حرصه على تحقيقه، فإن الخطاب يتطلب تأويله للكشف عن كيفية تحقق التعاون فيه؛ لأن التعاون في هذه الحالة لن يكون صريحا، وإنما ضمني، "فقد أريد بهذه القواعد التخاطبية – قواعد التعاون– أن تنزل منزلة الضوابط التي تضمن لكل مخاطبة إفادة تبلغ الغاية في الوضوح، بحيث تكون المعاني التي يتناقلها المتكلم والمخاطب معاني صريحة وحقيقية، إلا أن المتخاطبين قد يخالفان بعض هذه القواعد، ولو أنهما يداومان على حفظ مبدأ التعاون. فإذا وقعت هذه المخالفة فإن الإفادة في المخاطبة تنتقل من ظاهرها الصريح والحقيقي إلى وجه غير صريح وغير حقيقي"(٦١). والحقيقة إن رعاية المتكلم لكل مبادئ التعاون يبدو أمرا صعبا في كل خطاب، إذ إن المتكلم لا يمكنه أن يراعي كل هذه القواعد معا في معظم الأحيان، ويبدي قدرته في الوفاء

٥٩– راموس، مدخل إلى دراسة التداولية، ٧٩–٨٠.

٦٠– د.محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ٣٧.

٦١– د.طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ٢٣٩. وينظر: العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري، ١٠٠.

لها جميعا عاجزة عن أن تصنع ذلك، مما يضطره إلى خرق إحداها، والتضحية بها لمصلحة القواعد الأخرى[٦٢].

فإذا حدث هذا؛ تولد وفقا لغرايس ما يعرف بالاستلزام الحواري، الذي ينتقل فيه الخطاب من ظاهره الصريح إلى معنى ضمني غير صريح، فقد نشأت فكرة الاستلزام الحواري عند غرايس مرتبطة بمبدأ التعاون ومستظلة به، "فقد كان ما يشغل غرايس هو كيف يكون ممكنا أن يسمع المخاطَب شيئا ويفهم شيئا آخر؟، وقد وجد حلا لهذا الإشكال فيما أسماه مبدأ التعاون...فأراد أن يقيم معبرا بين ما يحمله القول من معنى صريح، وما يحمله من معنى متضمن، فنشأت فكرة الاستلزام"[٦٣]. فقد أسس (غرايس) هذا المبدأ استنادا إلى أن المتكلم ليس بالضرورة أن ينطق بما يقصده مباشرا، بل قد يلجأ إلى عدم التصريح بمقصده، فيكون المعنى مستلزما حواريا.

ومن ثم فإن الاستلزام الحواري يتولَّد عندما يراعي المتخاطبون مبدأ التعاون – من حيث كونه مبدأ عاما–، مع خرق إحدى مبادئه الفرعية[٦٤]، "وعليه إذا كانت الاستلزامات الحوارية تتفرع إلى تلك التي تتولد عن احترام المبدأ العام والقواعد الحوارية، وتلك التي تتولد عن خرق قاعدة أو قواعد معينة، فهذا يبين أن المدلول المستلزم حواريا قد يتولد عن الإخلال بقاعدة فرعية، مع الاستمرار في احترام القواعد الأخرى والمبدأ العام، وقد يتولَّد عن إخلال المتكلم بإحدى القواعد على الأقل، كما يتولَّد وهو يحترمها جميعا"[٦٥].

وإذا جئنا إلى التعاون الاستلزامي في حديث (متى الساعة؟) وجدناه متحققا في الحالتين اللتين لم يعط النبي (ﷺ) فيهما إجابة للسائل عن سؤاله، حيث عدل في حالة عن الجواب المباشر إلى آخر مستلزم، وفي الحالة الأخرى صرّح بعدم تملكه الإجابة، ويتوجه هذا وفق معطيات خطابية نحاول تلمسها فيما يلي. أما الحالة الأولى التي لم يُجب النبي (ﷺ) السائل فيها، فهي:

–عَنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه): "أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ (ﷺ) عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ قَالَ: لَا شَيْءَ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ (ﷺ)، فَقَالَ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ"[٦٦]. قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ (ﷺ): أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ.

إذا نظرنا إلى هذه الرواية للحديث وجدنا أن النبي (ﷺ) لم يجب السائل بتحديد أمارة أو علامة لقيام الساعة، وهو ما فعله مع السائلين السابقين، بل إن النبي (ﷺ) توجه إلى السائل ردا على سؤاله بسؤال

٦٢– ينظر: د.محند الركيك، إشكالية التواصل في المقاربة التداولية، ٢٠٤.

٦٣– د.محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ٣٤.

٦٤– ينظر: د.أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية، ٢٧. د.بنعيسى أزاييط، الخطاب اللساني العربي، ١١٨.

٦٥– العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ١١٧.

٦٦– البخاري، الصحيح، حديث رقم (٣٦٨٨). مسلم، الصحيح، حديث رقم (٢٦٣٩).

أيضا، فجاءت إجابة النبي (ﷺ) في اتجاه آخر غير اتجاه الإجابة، إذ كانت الإجابة سؤالا للسائل هو (وماذا أعددت لها؟)، وهذا هو جانب العدول عن إظهار التعاون المباشر إلى ما يستلزمه، حيث حدث عدول[٦٧]عن تحقق قاعدة الكم التي تقتضي أن يكون الجواب على قدر السؤال، "فقاعدة الكم يمكن انتهاكها عند إعطاء قدر أكبر من الأخبار، أو أخبارا أقل مما هو مطلوب في الوقت نفسه الذي يتم فيه بصورة واضحة إظهار الرغبة في التعاون"[٦٨]. وهنا ينتقل النبي (ﷺ) بالخطاب من درجته الصريحة إلى وجهه الضمني، وينتقل التعاون من درجته المعيارية إلى تحققه بالاستلزام، "فالأصل في الجواب إذا كان السؤال موجها أن يكون مطابقا للسؤال؛ لأن السائل إنما سأل ليعرف حكم المسئول عنه، لا أن يذكر له جواب لم يكن يترقبه...فالجواب قد يخالف السؤال إشارة إلى مراعاة حال السائل، ولهذه المخالفة مقصد، وهو توجيه السائل بأسلوب بعيد عن التجهيل"[٦٩].

وكان العدول عن تحقق قاعدة الكم في هذا الخطاب مقصودا من النبي (ﷺ)، فقال (ﷺ): "ما أعددت لها؟ فأعرض عن الجواب عن الساعة إلى ذكر الاستعداد لها؛ لأنه هو المأمور به وهو الذي يعني السائل وغيره، وينبغي الاهتمام به"[٧٠]. فالسؤال عن وقت الساعة لا يهم السائل، فعدل النبي (ﷺ) عن إجابته بما لا يهمه إلى ما يهمه، ولفت نظره إلى أن الذي يجب عليه هو العناية بأمر الساعة، وما يتوجب عليه عمله في الاستعداد لها، "فلم يطابق الجواب السؤال؛ لأن السائل توجه إلى معرفة وقت قيام الساعة، ولما كانت هذه المعرفة لا تفيد السائل مثل ما يفيده الجواب غير المطابق، أجاب النبي (ﷺ) السائل به توجيها منه إلى أن الأولى أن يسأل هذا السؤال؛ لأن الإعداد للساعة من أعمال البر المنجية، أما العلم بها فهو أولا: لا يفيد السائل شيئا، وثانيا: أن الله أخفى العلم بها"[٧١].

فقد سلك النبي (ﷺ) مع السائل – كما يقول ابن حجر[٧٢]– أسلوب الحكيم، ويقصد به: "تلقي المخاطب بغير ما يترقب، بحمل كلامه على خلاف مراده؛ تنبيها على أنه الأولى بالقصد أو السائل بغير ما يتطلب، بتنزيل سؤاله منزلة غيره؛ تنبيها على أنه الأولى بحاله أو المهم له"[٧٣]. وهو أسلوب مُلهم في توجيه المخاطب وتنبيهه، يقول السكاكي (ت٦٢٦هـ) في فائدته وأثره: "إنه ينزل سؤال السائل منزلة سؤال غير سؤاله؛ لتوخي التنبيه له بألطف وجه على تعديه عن موضع سؤال هو أليق بحاله أن يسأل عنه أو

٦٧– أفضل استعمال مصطلح العدول عن المصطلحين المستخدمين في هذا السياق (الخرق/ الانتهاك) تأدبا مع النبي (ﷺ).

٦٨– راموس، مدخل إلى دراسة التداولية، ٩٨.

٦٩– د.أحمد بشيش، اختلاف الإجابات في الحديث النبوي، ٧٤.

٧٠– ابن رجب، فتح الباري، ٢١٦/١. وينظر: العيني، عمدة القاري، ١٩٦/٢٢.

٧١– د.أحمد بشيش، اختلاف الإجابات في الحديث النبوي، ٧٦.

٧٢– ينظر: ابن حجر، فتح الباري، ٥٦٠/١٠.

٧٣– القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ٩٤/٢.

أهم له إذا تأمل، وأن هذا الأسلوب الحكيم لربما صادف المقام فحرك من نشاط السامع ما سلبه حكم الوقور، وأبرزه في معرض المسحور"[٧٤]. فنتج عن ذلك استلزام المعنى المقصود من مبادرة السائل بهذا السؤال، وهو أن الأهم ليس موعد الساعة، بل الأهم الذي قدمته للساعة، وكيف استعددت لها؟.

وعن قاعدة الكيف الذي تقتضي قول الصدق، وعدم التلفظ بما ليس للمتكلم عليه دليل، فإن التوجه إليها، والحرص على تحققها كان الباعث والموجه إلى العدول في إجابة السائل أصلا – هذا السائل وكل سائل–، فالنبي (ﷺ) لا يجيب إجابة مباشرة عن سؤال (متى الساعة؟) –كما سبق ذكره– لأنه لا يقول إلا ما يعلمه، وما له عليه (ﷺ) دليل.

أما قاعدة المناسبة، فهي المحرك الأساس لهذا الخطاب، وهي التي يستبان بها خصوصية هذا الخطاب، إذ إن مراعاة السائل وحاله كان سبب التوجه إليه بهذا الخطاب، فلمَ اختص هذا السائل – وليس غيره من السائلين– بهذا الخطاب؟ إن ذلك يتضح في ضوء قاعدة المناسبة. لقد توجه النبي (ﷺ) لهذا السائل بهذا السؤال (وماذا أعددت لها؟)، وكأن النبي (ﷺ) علم أو استبان له ضعف حال هذا السائل في العناية بالعمل الذي تتطلبه الساعة والاستعداد لها، فكأن هذا السؤال النبوي قد خرج على سبيل التعجب أو الاستنكار، أي: جئت تسأل عن الساعة، وأنت لم تعد لها شيئا!

ولعل هذا التفسير يستأنس بلفظ ورد خلال جواب النبي (ﷺ) على هذا الرجل في روايتين لهذا الحديث، أولهما: "عَنْ أَنَسٍ "أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ أَتَى النَّبِيَّ (ﷺ)، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَتَى السَّاعَةُ قَائِمَةٌ؟ قَالَ: وَيْلَكَ! وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟"[٧٥]. وأما الرواية الأخرى فهي: "عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ (ﷺ) قَامَ فَحَذَّرَ النَّاسَ. فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَبَسَرَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) فِي وَجْهِهِ[٧٦]. فَقُلْنَا لَهُ: اقْعُدْ، فَإِنَّكَ قَدْ سَأَلْتَ رَسُولَ اللهِ مَا يَكْرَهُ، ثُمَّ قَامَ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ: مَتَى السَّاعَةُ؟

٧٤– السكاكي، مفتاح العلوم، ٣٢٧.

٧٥– البخاري، الصحيح، حديث رقم (٦١٦٧).

٧٦ كان ذلك راجعا إلى كون الرجل لم ينتظر انتهاء حديث النبي (ﷺ) مع القوم قبل أن يسأل، والحديث "فيه أن من آداب المتعلم ألا يسأل العالم ما دام مشتغلا بحديث أو غيره، لأن من حق القوم الذين بدأ بحديثهم ألا يقطعه عنهم حتى يتمه. وفيه الرفق بالمتعلم وإن جفا في سؤاله أو جهل لأنه (ﷺ) لم يوبخه على سؤاله قبل إتمام حديثه". العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ٧/٢. ويمكن أن يكون ذلك راجعا إلى كون النبي (ﷺ) كان لا يحب أن يسأل عن موعد قيام الساعة بعد وقت من استقرار العلم باختصاص الله (ﷻ) بوقتها.

قَالَ: فَبَسَرَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) فِي وَجْهِهِ أَشَدَّ مِنَ الْأُولَى، قَالَ: فَأَجْلَسْنَاهُ، قَالَ: ثُمَّ قَامَ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ (ﷺ): "وَيْحَكَ، وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟"(٧٧).

ففي قول النبي (ﷺ): (ويلك/ويحك) ما يدل على تنبيه هذا السائل والإشفاق عليه في عنايته بالسؤال عن وقت قيام الساعة، دون عنايته بما تتطلبه الساعة من عمل، جاء في لسان العرب: "وَيْح: كَلِمَةٌ تُقَالُ رَحْمَةً...ووَيْحٌ: كَلِمَةُ تَرَحُّم وتَوَجُّع، وَقَدْ يُقَالُ بِمَعْنَى الْمَدْحِ وَالْعَجَبِ...وَيْح: كَلِمَةُ رَحْمَةٍ، ووَيْلٌ: كَلِمَةُ عَذَابٍ؛ وَقِيلَ: هُمَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ...والوَيْحُ زَجْرٌ لِمَنْ أَشرف عَلَى الهَلَكة...وَقِيلَ: وَيْح تَقْبِيحٌ...وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوَيْلِ فُرْقانٌ إلا أَنه كأَنه أَلْيَنُ قَلِيلًا، قَالَ: وَمَنْ قَالَ هُوَ رَحْمَةٌ؛ يَعْنِي أَن تَكُونَ الْعَرَبُ تَقُولُ لِمَنْ تَرْحَمَهُ: وَيْحَه، رِثايَةً لَهُ...وَقَدْ قَالَ أَكثر أَهل اللُّغَةِ: إِن الْوَيْلَ كَلِمَةٌ تُقَالُ لِكُلِّ مَنْ وَقَعَ فِي هَلَكَة وَعَذَابٍ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ وَيْحٍ وَوَيْلٍ أَن وَيْلًا تُقَالُ لِمَنْ وَقَعَ فِي هَلَكَة أَو بَلِيَّةٍ لَا يترحم عليه، ووَيْح تُقَالُ لِكُلِّ مَنْ وَقَعَ فِي بَلِيَّةٍ يُرْحَمُ ويُدْعى لَهُ بِالتَّخَلُّصِ مِنْهَا"(٧٨). فهما تنبيه للسائل، وترحم عليه، وزجر له للكف عن العناية بموعد قيام الساعة، دون عناية بها هي ذاتها. فالنبي (ﷺ) يريده أن ينصرف من العناية بوقت قيام الساعة إلى العناية بحال نفسه فيها عند قيامها، وما يسبقها من عمل ينجيه ويؤمنه فيها، وهذه درجة عليا من درجات التعاون تبلغ الحرص على السائل، وتأخذ بيده للنجاة، وتجعل الخطاب مفيدا للسائل، ولكل من هو مثله.

ولعل التوجيه السابق يستأنس برد السائل نفسه، الذي يعلم حال نفسه، وأن بضاعته في الاستعداد للساعة قليل، فجاء رده على سؤال النبي (ﷺ) ما أعددت لها؟ قائلا: (لا شيء!)، وفي رواية أخرى قال: (ما أَعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة)(٧٩). وهذا ما يعضد توجيه الاستفهام النبوي (ما أعددت لها؟) على أن القصد به توجيه هذا السائل إلى رفع الهمة في الاستعداد لها قبل السؤال عن وقت قيامها، إذ إن تأخر قيامها أو قربه لن يكون فارقا إذا بقي على تلك الحال، فوقع الاستلزام الحواري في هذا الخطاب، بما تضمنه من معنى ضمني غير صريح في توجيه السائل وحثه.

وكأن السائل نفسه وصله هذا المعنى، وأراد أن يبين في جوابه ما يمتلكه في الاستعداد لها – رغم ضعف عمله–، فجاء هذا الاستثناء في قوله: (لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله)، وكأنه أظهر بهذا الجواب أنه ليس فارغا تماما في استعداده للقيامة، إن عمله لا يبلغ درجة الاستعداد لها، لكن قلبه يعوض ذلك، إنه يحب الله ورسوله، فيجيء التطمين النبوي لهذا الرجل (أنت مع من أحببت)، فحبك لله وللرسول يوف ينجيك؛ لأنه سيدفعك للعمل لتكون مع من تحب. وقد جاءت هذه الإجابة من النبي (ﷺ) مناسبة

٧٧– الإمام أحمد، المسند، حديث رقم (١٢٧٠٣).

٧٨– ابن منظور، لسان العرب، (و ي ح)، ٢/٦٣٨–٦٣٩.

٧٩– البخاري، الصحيح، حديث رقم (٦١٧١).

لهذا السائل الذي أنجى نفسه بمقام المحبة لله ورسوله، فكان قوله (ﷺ): (أنت مع من أحببت) في مقابلة قول الرجل (إلا أني أحب الله رسوله)، بل تأمل فيض النبي (ﷺ) على هذا الرجل بقوله (مع من أحببت)، أي (مع الله ورسوله)، ولم يقل له (أنت معي)، وإذا كان مع الله (ﷻ) فأي شيء يخيفه بعد ذلك!، لقد بلغ النبي (ﷺ) بهذا الرجل أعلى درجات التطمين، مكافأة له وتعويضا لحبه الله ورسوله.

ولنتأمل هذا الخطاب التعاوني في هذا الجزء من الحديث، وكيف تجاوز الخطاب المتكلم (النبي/الرجل السائل)، والمخاطَب (النبي/الرجل السائل) إلى الحاضرين المعاينين لهذا الموقف التخاطبي. إن عبارة (أنت مع من أحببت) خاصة بهذا السائل، لكنها لا تمنع غيره من المتلقين المسلمين من الدخول فيها، وهذا ما تحقق في هذا الخطاب، بما ظهر في قول سيدنا أنس (ﷺ): (فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي(ﷺ): أنت مع من أحببت)، لقد فرحوا بقول النبي (ﷺ) (أنت مع من أحببت)، على الرغم من أن المخاطب بها هو الرجل السائل وحده، لكنهم أدخلوا أنفسهم فيه بما يلزمه كذلك، فالرجل يحب الله ورسوله، إذن هو مع من يحب، وإذا كنا نحن كذلك نحب الله ورسوله، فنحن مع من نحب كذلك، وهو موقف تعاوني استلزامي[٨٠] داخل الموقف الأصل المتحقق فيه التعاون استلزاما كذلك، فكان التعاون في الموقف عامة استلزاما وضمنا.

وفي سياق الحديث عن قاعدة المناسبة، ومراعاة حال المخاطب في هذه الرواية للحديث، فقد ذكرت بعض روايات الحديث أن السائل كان أعرابيا، "فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ أَعْرَابِيًّا، قَالَ لِرَسُولِ اللهِ (ﷺ) مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ (ﷺ): "مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ قَالَ: حُبَّ اللهِ وَرَسُولِهِ، قَالَ: "أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ"[٨١]. "وعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ أَتَى النَّبِيَّ (ﷺ)، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَتَى السَّاعَةُ قَائِمَةٌ قَالَ وَيْلَكَ وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا قَالَ: مَا أَعْدَدْتُ لَهَا إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ قَالَ: إِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ، فَقُلْنَا: وَنَحْنُ كَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَفَرِحْنَا يَوْمَئِذٍ فَرَحًا شَدِيدًا"[٨٢]. وهذا يجعلنا نطرح سؤالا: ما الذي أوجد هذا التغاير في خطاب هذا الأعرابي؟ ولمَ كان خطابه استلزاما، وليس صريحا مثل غيره من الأعراب الذين

٨٠- جاء في رواية أخرى للحديث السؤال المباشر عن الاشتراك في هذا الحكم مع الرجل، والإجابة المباشرة من النبي بتحقق ذلك، وهي: عَنْ أَنَسٍ "أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ أَتَى النَّبِيَّ (ﷺ)، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَتَى السَّاعَةُ قَائِمَةٌ قَالَ وَيْلَكَ وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا قَالَ: مَا أَعْدَدْتُ لَهَا إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ قَالَ: إِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ، فَقُلْنَا: وَنَحْنُ كَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَفَرِحْنَا يَوْمَئِذٍ فَرَحًا شَدِيدًا" البخاري، الصحيح، حديث رقم (٦١٦٧). والتعاون في هذه الرواية في هذا الجزء من الخطاب ليس مستلزما، وإنما مباشر.

٨١- مسلم، الصحيح، حديث رقم (٢٦٣٩).

٨٢- البخاري، الصحيح، حديث رقم (٦١٦٧).

أجيبوا في سؤالهم عن الساعة؟ فقد وجدنا في ظل مراعاة حال الأعراب عموما في إجابات النبي (ﷺ) السابقة يجيبهم إجابة مباشرة، فقد وجدناه (ﷺ) يجيب أحدهم بقوله: (إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة)، ويجيب غيره من الأعراب مشيرا إلى أصغرهم بقوله: (إن يعش هذا لا يدركه الهرم حتى تقوم ساعتكم)، مما لم يحدث مع هذا الرجل الأعرابي الذي أجيب استلزاما وليس صراحة، ووجه إلى الاستعداد للساعة بالعمل، وليس بالسؤال عن وقت قيامها.

وهذه المغايرة لا يمكن أن تفسَّر بغير مراعاة حال السائل نفسه، فكأن النبي (ﷺ) آنس ضعف عمل هذا الرجل – كما سبق بيانه–، مما يتطلب تنبيها أعلى، كما آنس منه في الوقت ذاته ذلك الحب البادي عليه لله ولرسوله، ولعل النبي (ﷺ) قد آنس أيضا أن ذلك الرجل كان مهيأ لتقبل ذلك الخطاب أكثر من غيره من الأعراب، بحيث لا يرتاب من إجابة النبي (ﷺ)، ولا يتشكك إذا لم يجبه النبي (ﷺ) صراحة عن سؤاله، بحيث يكون كل ذلك هو معبر الوصول بالخطاب إلى لازمه ومعناه الضمني الذي يجعل الخطاب آمنا في تأويله وفهمه على وجهه الصحيح، ويكون المعنى المقصود من النبي (ﷺ) محروسا في تلقي هذا الأعرابي له في ضوء ما آنسه النبي (ﷺ) منه، وما عرفه عنه.

بل لقد ظهر في إحدى روايات هذا الحديث مزاوجة بين الجواب المناسب لهذا الأعرابي بكونه فردا، والجواب المناسب له بكونه أعرابيا، هي: "عنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ أَتَى النَّبِيَّ (ﷺ)، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَتَى السَّاعَةُ قَائِمَةٌ قَالَ وَيْلَكَ وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ قَالَ: مَا أَعْدَدْتُ لَهَا إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، قَالَ: إِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ، فَقُلْنَا: وَنَحْنُ كَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَفَرِحْنَا يَوْمَئِذٍ فَرَحًا شَدِيدًا، فَمَرَّ غُلَامٌ لِلْمُغِيرَةِ، وَكَانَ مِنْ أَقْرَانِي، فَقَالَ: إِنْ أُخِّرَ هَذَا فَلَنْ يُدْرِكَهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ"[٨٣]. وهذه رواية فريدة لهذا الحديث؛ لأنها فيما يتعلق بالتعاون التخاطبي لها خصوصية، إذ إنها توجه الحديث توجيها تعاونيا خاصا، فتجمع بين الجواب المباشر وغير المباشر للسائل، لكنها تبدأ بالأولى له، والأكثر ملاءمة وهو تحريكه في الاستعداد للساعة، وحث الهمة في العمل لها، واستنكار حاله في السؤال عنها دون الاستعداد لها، ثم تعطيه إجابة مباشرة عن سؤاله ملاءمة له من حيث القوم الذين ينتمي إليهم، وهم الأعراب.

٨٣– البخاري، الصحيح، حديث رقم (٦١٦٧).

ويكون الجواب النبوي في هذه الرواية قد أعطى السائل إجابة مناسبة لحاله هو (حالته الخاصة) من حيث كونه فردا، ثم استتبع ذلك بما يناسب حاله من حيث القوم الذين ينتمي إليهم وهم الأعراب، فجاء الخطاب مناسبا لهذا الرجل في سمته الخاص وسماته العامة، فكان خطابا خاصا به، عاما لكل الأعراب الذين هم مثله.

أما إذا جئنا إلى قاعدة الجهة (الكيفية) التي تقتضي الإيجاز والبعد عن الالتباس، فأي تعبير في المطالبة بالانشغال بالعمل للساعة، وليس الانشغال بوقت قيامها، أوجز وأقصر من قوله (ﷺ): (ما أعددت لها؟)، فهذا الاستفهام الموجز قد حمل تلك المعاني الكثيرة التي سبق بيانها، ثم أي تعبير أوجز وأبلغ في تطمين المتلقي، ودفعه للعمل، وجبر خاطره أقرب وأوجز من قوله (ﷺ): (أنت مع من أحببت).

أما الحالة الأخرى التي لم يُجب النبي (ﷺ) السائل فيها، فهي:

– عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: "كَانَ النَّبِيُّ (ﷺ) بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ. قَالَ: مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ. قَالَ: مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ. قَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ الْأَمَةُ رَبَّهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الْإِبِلِ الْبُهُمُ فِي الْبُنْيَانِ، فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ. ثُمَّ تَلَا النَّبِيُّ (ﷺ): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[٨٤]، ثُمَّ أَدْبَرَ، فَقَالَ: رُدُّوهُ. فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ، جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ"[٨٥].

تلك هي المرة الوحيدة التي لم يجب النبي (ﷺ) السائل فيها، وهي المرة الوحيدة التي يصرح النبي (ﷺ) فيها كذلك بعدم علمه بوقت الساعة، ومن ثم ففي هذا الموقف كذلك قد حدث عدول عن تحقق قاعدة الكم، بالعدول عن مراعاتها قصدا إلى ما يستلزم ذلك من معنى، فالسائل في هذا الحديث (جبريل عليه السلام) لم يتلق إجابة عن سؤاله، وهو جانب متوقع في الخطاب الاستفهامي على الرغم من أن معياريته تفترض أن المخاطَب لديه الإجابة، وأن عليه أن يجيب السائل، "فالاستفهام يقوم من الناحية التخاطبية على قاعدة يسيرة مفادها اعتقاد المتكلم أن مخاطبه يمتلك الإجابة التي يطلبها ، وهو قادر على إفادة المتكلم بها، ومن الأساس أن نفترض أيضا أن المتكلم لا يملك هذه الإجابة، وهي حالة مجردة جدا،

٨٤– (سورة لقمان: من الآية ٣٤).

٨٥– البخاري، الصحيح، حديث رقم (٥٠).

وكثيرا ما تؤكد وقائع المخاطبات في مقامات مختلفة أن الأمور ليست على هذه الصورة"[٨٦]. فالمخاطب عند عدم تملكه الإجابة فإنه يخبر المتكلم بذلك إما تصريحا وإما تضمينا.

ونجد النبي (ﷺ) هنا قد صرح بأنه لا يعلم وقت قيام الساعة، بتلك العبارة المباشرة (ما المسئول عنها بأعلم من السائل)، وهذه العبارة ظاهرة في الدلالة على عدم العلم بوقت الساعة، مستلزمة لكف كل إنسان عن الكلام فيما لا يعلم (ﷺ)، "ففيها أنه ينبغي للعالم والمفتي وغيرهما إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم، وأن ذلك لا ينقصه، بل يستدل به على ورعه وتقواه ووفور علمه"[٨٧]. ويستلزم من هذه العبارة كذلك عدم اختصاص النبي (ﷺ) بعدم العلم بوقت قيام الساعة، بل إن كل البشر والملائكة مشتركون في ذلك، "فمعناه أن الناس كلهم في وقت الساعة سواء، وكلهم غير عالمين به في الحقيقة"[٨٨]. فقد عبر النبي (ﷺ) عن ذلك بلفظ يشعر باشتراك الجميع في هذا الحكم، إذ ليس عدم العلم بوقت الساعة منحصرا فيه (ﷺ)، وفي جبريل (عليه السلام)، فقوله (ﷺ): (ما المسئول عنها بأعلم منها من السائل)، "عدل به عن قوله (لست بأعلم بها منك) إلى لفظ يشعر بالتعميم؛ تعريضًا للسامعين، أي: إن كل مسؤول وكل سائل فهو كذلك"[٨٩].

وهذا المعنى المستلزم في اختصاص علم الله (ﷻ) بالساعة قد صرح به النبي (ﷺ) في قوله: (خمس لا يعلمهن إلا الله)، وهي جملة صريحة دالة على اختصاص الله وحده بالعلم بوقت الساعة؛ ليتأكد المعنى بطريق التصريح، كما اتضح بطريق الاستلزام، فيكون أثبت في ذهن المتلقي، وأوضح في وعيه وحفظه، فكان التعبير عن هذا المعنى من طريقي التصريح والاستلزام كونه غرض الخطاب الأصلي، ومقصد السائل من سؤاله.

وإذا كان النبي (ﷺ) قد عدل عن تحقق قاعدة الكم في هذا الخطاب بعدم إعطاء إجابة للسائل عن سؤاله، فقد أبدى (ﷺ) تعاونا في هذا الخطاب، وأظهر رغبة في تحققه؛ بمبادرته (ﷺ) لتحقيق جانب من جوانب الكم المتعلقة بهذا السؤال، وهو ذكر أمارات الساعة، فأتبع النبي (ﷺ) قوله: (ما المسئول عنها بأعلم من السائل)، بقوله (ﷺ): (وسأخبرك عن أشراطها)، وهذا تعويض للسائل عن سؤاله الذي لم يجب عنه، والمراد من هذه العبارة أن النبي (ﷺ) إذا لم يكن قد أفاد السائل بوقت قيام الساعة كونه لا يعلمه، فإنه يعلم شيئا عنها يمكنه إخبار السائل به، وهو ما يقع قبلها من أشراط تدل على اقترابها، وهو ما يبدو أكثر وضوحا في رواية أخرى للحديث، وردت فيها هذه العبارة بقول النبي (ﷺ): "ولكن، سأحدثك عن

٨٦- د.شكري المبخوت، دائرة الأعمال اللغوية، ١٩٧.

٨٧- النووي، شرح صحيح مسلم، ١٥٨/١.

٨٨- ابن رجب، فتح الباري، ٢١٥/١.

٨٩- الشنقيطي، كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري، ٣٥٢/٢.

أشراطها"[٩٠]، فهذا الاستدراك بـ (لكن) يعطي ذلك المعنى الذي أظن أنه المقصود بقول النبي (ﷺ) (سأحدثك عن أشراطها)، وهذا من مراعاة تحقق قاعدة الكم بدرجة، ووقوعه بنسبة، في حال كان تحققها تامة في هذا الخطاب ليس ممكنا.

وقاعدة الكيف مثل كل المواقف السابقة قد تحققت تحققا تاما في هذا الموقف، وروعيت في ذلك الخطاب – كما روعيت في غيره–، ففي تصريح النبي (ﷺ) بأنه لا يعلم وقت قيام الساعة، وذلك في قوله: (ما المسئول عنها بأعلم من السائل)، وقوله: (خمس لا يعلمهن إلا الله) هو الحقيقة التي توافق قول الصدق، والتي لا يملك دليلا على غيرها، وهو المراد بقاعدة الكيف، "حيث يمكن تقسيم هذه القاعدة إلى مقولتين فرعيتين: قل الحقيقة، وقل فقط ما أنت متأكد منه، وإذا لم يكن المرء متأكدا فعليه اللجوء إلى التثبت من مصادر الأخبار المعتمدة وتعليلها، واللجوء إلى جمل توضح بجلاء أننا لسنا متأكدين تماما من أقوالنا"[٩١].

وفيما يخص قاعدة المناسبة، فقد أشرت سابقا إلى أن ذلك هو الموقف الوحيد الذي صرح فيه النبي (ﷺ) بعدم علمه بوقت قيام الساعة، وهذا إنما يفسَّر في ضوء هذه القاعدة، وينطلق منها، إذ مراعاة المقام والمخاطب وجها الخطاب ليكون بصورته التي هو عليه، فالسائل هنا لم يكن يقصد بسؤاله عن وقت قيام الساعة الاستعلام، بل قصد بذلك التعليم، إنه يوجه السؤال ليحصل التنبيه إلى أنه لا يجوز السؤال عن وقت قيام الساعة، فلم يكن السائل رجلا بشريا، بل كان هو جبريل (عليه السلام)، كما أوضح النبي (ﷺ) في نهاية الحديث بقوله: (هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم)، ومن ثم جاز في هذا الموقف التعليمي أن يصرح النبي (ﷺ) للمرة الأولى بعدم تملكه إجابة هذا السؤال؛ لأن المخاطَب لم يكن ينتظر إجابة، "فليس السؤال عن الساعة ليعلمها الحاضرون كالأسئلة السابقة، بل لينزجروا عن السؤال عنها، كما قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ﴾[٩٢]، فلما وقع الجواب عنها بأنها لا يعلمها إلا الله كفوا"[٩٣].

فلما كثر من الناس سؤالهم عن وقت قيام الساعة كما ظهر في الأحاديث السابقة، وكما صوره القرآن في بعض الآيات التي سبق ذكرها كذلك، هُيئ هذا الموقف الخطابي للتعليم والتنبيه، وقد تهيأ لهذا الموقف أن يكون عاما، يشهده المتلقون المقصودون بالخطاب، وألا يكون خاصا بين النبي (ﷺ) وجبريل (عليه السلام)، فكان الخطاب مسموعا متلقيا من المسلمين الحاضرين؛ حتى يتحقق الغرض منه، كما ظهر في صدر الحديث في قول أبي هريرة (رضي الله عنه): (كان النبي (ﷺ) بارزا يوما للناس، فأتاه جبريل)، حيث إن إتيان

٩٠– البخاري، الصحيح، حديث رقم (٤٧٧٧). مسلم، الصحيح، حديث رقم (٩).

٩١– راموس، مدخل إلى دراسة التداولية، ١٠٠.

٩٢– (سورة الأحزاب: من الآية ٦٤).

٩٣– زكريا الأنصاري، منحة الباري بشرح صحيح البخاري، ٢٢٧/١.

جبريل (عليه السلام) النبي (ﷺ) بهذه الكيفية مقصود، حيث تمثل في صورة رجل، ليكون مشاهدا مسموعا، كما جاء في رواية أخرى: "أَنَّ رَسُولَ اللهِ (ﷺ) كَانَ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ، إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ يَمْشِي"(٩٤).

بل إن تمثل جبريل (عليه السلام) كان تمثلا لافتا للانتباه، وذلك استرعاءً لانتباه المتلقين، وهو ما صورته إحدى روايات الحديث، "فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَأَبِي ذَرٍّ، قَالَا: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) يَجْلِسُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَصْحَابِهِ، فَيَجِيءُ الْغَرِيبُ فَلَا يَدْرِي أَيُّهُمْ هُوَ حَتَّى يَسْأَلَ، فَطَلَبْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) أَنْ نَجْعَلَ لَهُ مَجْلِسًا يَعْرِفُهُ الْغَرِيبُ إِذَا أَتَاهُ، فَبَنَيْنَا لَهُ دُكَّانًا مِنْ طِينٍ، كَانَ يَجْلِسُ عَلَيْهِ، وَإِنَّا لَجُلُوسٌ وَرَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) فِي مَجْلِسِهِ، إِذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ أَحْسَنُ النَّاسِ وَجْهًا، وَأَطْيَبُ النَّاسِ رِيحًا، كَأَنَّ ثِيَابَهُ لَمْ يَمَسَّهَا دَنَسٌ، حَتَّى سَلَّمَ فِي طَرَفِ الْبِسَاطِ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: أَدْنُو يَا مُحَمَّدُ، قَالَ: "ادْنُهْ"، فَمَا زَالَ يَقُولُ: أَدْنُو مِرَارًا، وَيَقُولُ لَهُ: "ادْنُ"، حَتَّى وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رُكْبَتَيْ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ)، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: "الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ" قَالَ: إِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ فَقَدْ أَسْلَمْتُ؟ قَالَ: "نَعَمْ"، قَالَ: صَدَقْتَ. فَلَمَّا سَمِعْنَا قَوْلَ الرَّجُلِ صَدَقْتَ أَنْكَرْنَاهُ..."(٩٥). فقد حرص جبريل (عليه السلام) أن يسترعي انتباه المتلقين، وذلك بصورته (أحسن الناس وجها، كأن ثيابه لم يمسها دنس)، وريحه (وأطيب الناس ريحا)، وفعله (حتى وضع يديه على ركبتي رسول الله (ﷺ))، وقوله: (يا محمد) مناديا النبي (ﷺ) باسمه مجردا، وقوله: (صدقت)، لما أجابه النبي (ﷺ) عن سؤاله، مما كان له أثره في تنبه الحاضرين، ومتابعتهم للموقف والخطاب، يدل على ذلك إنكارهم قوله للنبي (ﷺ) (صدقت)، (فلما سمعنا قول الرجل صدقت أنكرناه)، مما يدل على أنهم كانوا متوجهين بأبصارهم وأسماعهم وعقولهم إلى هذا الخطاب بين النبي (ﷺ) وهذا الرجل، وهو المقصود.

فقد تهيأ لهذا الموقف الخطابي عوامل إنجاحه وتأثيره في المتلقين له، ليتحقق الغرض منه، "فالمقصود بهذا الخطاب كف السامعين عن السؤال عن وقت الساعة؛ لأنهم كانوا قد أكثروا السؤال عنها،

٩٤- البخاري، الصحيح، حديث رقم (٤٧٧٧). ولا تعارض بين قول الراوي: (إذ أتاه جبريل)، وقوله: (إذ أتاه رجل يمشي)، فقوله (جبريل) إنما قاله بعدما أعلمهم النبي (ﷺ) بذلك في نهاية الحديث، فلما روى الحديث بدأ بتبيين حقيقة السائل، أما قوله (رجل يمشي) فبالنظر إلى الحالة التي ظهر عليها، والصورة التي تمثل بها، قبل أن يبين لهم النبي (ﷺ) أن ذلك الرجل هو جبريل (عليه السلام).

٩٥- النسائي، السنن، حديث رقم (٤٩٩١).

كما ورد في الآيات والأحاديث، كقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾[٩٦]، فلما حصل الجواب بما ذكر، حصل اليأس من معرفتها، فانكفوا، بخلاف الأسئلة الماضية، فإن المراد بها استخراج الأجوبة؛ ليتعلمها السامعون ويعملوا بها"[٩٧].

ومن ثم لما كان الغرض من الخطاب هنا مغايرا له عن المواقف السابقة، فقد أتيح للنبي (ﷺ) فيه أن يصرّح بعدم علمه بوقت الساعة، إذ القصد من هذا الخطاب "إظهار انفراد الله بعلمها دون خلقه، حتى ينقطع السؤال عنها"[٩٨]. ولعل هذا الموقف كان متأخرا في وقوعه عن المواقف السابقة، وكذلك كان إيجاده في ضوء تكرر حدوثها، إذ إنه لما كثر من الناس – خاصة الأعراب– السؤال عن وقت قيام الساعة، مع خشية النبي (ﷺ) إن أجابهم بعدم علمه بوقت قيامها مباشرة أن يرتابوا؛ استحدث هذا الموقف ليجيبهم النبي (ﷺ) تلك الإجابة المباشرة، في موقف لا يكونوا فيه سائلين، ومن غير أن يكونوا المتلقين المباشرين للإجابة، فيحدث بهذا كفهم عن ذلك السؤال. وهذا ما أوضحه النبي (ﷺ) بعدما انقضى الخطاب بقوله: (هذا جبريل، جاء يعلم الناس دينهم)، "فقد أسند التعليم إليه، وإن كان سائلا؛ لأن سؤاله سبب في التعليم"[٩٩]. وهذا جانب تعاوني في هذا الخطاب، إذ جعل النبي (ﷺ) الخطاب يتعدى السائل والمسئول القائمين به إلى كل المتلقين الحاضرين وغيرهم.

وإذا جئنا إلى قاعدة الجهة، وجدنا أوجز تعبير في بيان عدم العلم بوقت قيام الساعة، في قول النبي (ﷺ): (ما المسئول عنها بأعلم من السائل)، مع وضوح المقصود بالعبارة وكثرة ما يستنبط منها، فتستلزم اختصاص الله (ﷻ) بالعلم بوقت الساعة، وتستلزم التوقف في السؤال عنها.

الخاتمــة

انتهى البحث إلى نتائج جزئية وردت خلاله، أما مجمل ما انتهى البحث إليه:

- وجد التعاون التخاطبي في حديث (متى الساعة؟) في صورتين هما: التعاون المعياري، والتعاون الاستلزامي.
- التعاون المعياري يقصد به الخطاب الذي تتوافر وتراعى فيه مراعاة كل قواعد التعاون، وقد تحقق هذا في المواقف التي أجاب النبي (ﷺ) السائل عن سؤاله.
- التعاون الاستلزامي يقصد به تحقق التعاون في الخطاب على الرغم من عدم مراعاة كل القواعد التي تحكمه، ويكون ذلك استلزاما وضمنا، وقد وجد هذا في المواقف التي لم يعط النبي (ﷺ) السائل إجابة عن سؤاله.

٩٦- (سورة النازعات: الآية ٤٢).

٩٧- محمد الشنقيطي، كوثر المعاني الدراري، ٢/٣٥١-٣٥٢.

٩٨- ابن رجب، فتح الباري، ١/٢١٦.

٩٩- زكريا الأنصاري، منحة الباري بشرح صحيح البخاري، ١/٢٢٩.

- تعددت إجابات النبي (ﷺ) عن سؤال (متى الساعة؟)، وهي تفسَّر في ضوء السياق وملابساته، ومراعاة المخاطب المقصود، مع كونها جميعا صحيحة، مستندة إلى أصل تنطلق منه، وتتأسس عليه، محققة جميعها للتعاون التخاطبي مع المتكلم.
- لم يعط النبي (ﷺ) إجابة مباشرة عن سؤال (متى الساعة؟) في أي مرة أجاب فيها؛ وذلك لخصوصية هذا السؤال الذي اختص الله (ﷻ) نفسه بالعلم به، وجاءت إجابات النبي (ﷺ) في ضوء ما يعلمه عنها من أمارات وعلامات، ومن ثم فإن قاعدة الكم قد تحققت تحققا جزئيا في المواقف التي أجاب النبي (ﷺ) فيها، ولا يمكن بحال أن تتحقق تحققا تاما؛ لتعارض تحققها مع قاعدة الكيف التي تفترض قول الصدق، وعدم قول ما ليس للمتكلم عليه دليل.
- راعى النبي (ﷺ) حال السائل عن موعد قيام الساعة، فأجاب السائل إذا كان أعرابيا؛ وذلك لما هو معلوم له (ﷺ) عن الأعراب وطبيعتهم؛ دفعا للشك عنهم، ومنعا للارتياب منهم، إن أخبرهم مباشرة بعدم علمه بوقت قيام الساعة، وهي الحقيقة، ومن ثم تحقق التعاون المعياري في سؤال الأعراب عن الساعة.
- صرَّح النبي (ﷺ) بعدم علمه بوقت قيام الساعة في سؤال جبريل (عليه السلام) له (ﷺ)، وهي المرة الوحيدة التي وجد فيها هذا التصريح؛ لأنه الموقف الوحيد الذي لم يكن استعلاما من السائل، وإنما تعليم للسامعين، فتهيأت الملابسات للتصريح بذلك، ليستلزم من ذلك عدم السؤال عن وقت قيامها مرة أخرى.

المصادر والمراجع

١. أحمد بشيش (دكتور)، اختلاف الإجابات في الحديث النبوي، المجلة العلمية لعلوم الشريعة، جامعة المرقب، العدد ٤، ٢٠٢٠.

٢. أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ)، المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت،٢٠٠١.

٣. أحمد المتوكل (دكتور)، اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط٢، ٢٠١٠.

٤. الأزهري: أبو منصور محمد بن أحمد (ت٣٧٠هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠١.

٥. البخاري: محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ)، الجامع الصحيح، تحقيق: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، جدة، ١٤٢٢هـ.

٦. ابن بطال: أبو الحسن علي بن خلف (ت٤٤٩هـ)، شرح صحيح البخاري، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، ط٢، ٢٠٠٣.

٧. بنعيسى عسو أزاييط (دكتور)، الخطاب اللساني العربي، عالم الكتاب الحديث، إربد، ٢٠١٢.

٨. ابن حجر: أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.
٩. أبو حيَّان الأندلسي: محمد بن يوسف بن علي (ت٧٤٥هـ)، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.
١٠. راموس، مدخل إلى دراسة التداولية، ترجمة: يحيى حمداي، دار نيبور، العراق، ٢٠١٤.
١١. الزركشي: بدر الدين محمد بن عبد الله (ت٧٩٤ هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، ١٩٥٧م.
١٢. زكريا الأنصاري: زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري (ت ٩٢٦ هـ)، منحة الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق: سليمان العازمي، مكتبة الرشد، الرياض، ٢٠٠٥.
١٣. السَكَّاكي: أبو يعقوب يوسف بن محمد (ت:٦٢٦هـ)، مفتاح العلوم، تحقيق: د.عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠.

*** شكري المبخوت:**

- إنشاء النفي وشروطه النحوية الدلالية، مركز النشر الجامعي، جامعة منوبة، ٢٠٠٦.
- دائرة الأعمال اللغوية، دار الكتاب الجديد المتحدة، الصنائع، ٢٠١٠.
- طه عبد الرحمن (دكتور)، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٨م.
- عمر الأشقر (دكتور)، القيامة الكبرى، دار النفائس، الأردن، ط١٣، ٢٠٠٤.
- العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠١١م.
- العيني: بدر الدين محمود بن أحمد (ت٨٥٥هـ)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٩٧م.
- ابن فارس: أبو الحسين أحمد بن فارس (ت:٣٩٥هـ)، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩.
- فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة: د.صابر الحباشة، دار الحوار، سورية، ٢٠٠٧م.
- القَزْويني: محمد بن عبد الرحمن (ت٧٣٩هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: د.محمد عبد المنعم خفاجي، المكتبة الأزهرية، القاهرة، ط٣، ١٩٩٠م.
- ليتش، مبادئ التداولية، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٣م.
- محمد الخضر الشنقيطي، كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٥.

- محمد نظيف (دكتور)، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١٠.
- محمود نحلة (دكتور)، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠١١م.
- محند الركيك (دكتور)، إشكالية التواصل في المقاربة التداولية، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط، ٢٠٠٧.
- مسلم بن الحجاج (ت٢٦١هـ)، الصحيح، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٨م.
- ابن منظور: محمد بن مكرم (ت:٧١١هـ)، لسان العرب، تحقيق: أمين عبد الوهاب ومحمد العبيدي، دار إحياء التراث، بيروت، ط ٣، ١٩٩٩.
- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (ت٣٠٣هـ)، السنن الصغرى، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢، ١٩٨٦م.
- النووي: أبو زكريا يحيى بن شرف (ت٦٧٦هـ)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.
- ابن يعيش: موفق الدين أبو البقاء بن يعيش (ت:٦٤٣هـ)، شرح المفصل للزمخشري، تحقيق: د.إميل يعقوب بديع، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١.
- يوسف رحايمي (دكتور)، مبدأ التعاون عند غرايس وتجليات حضوره عند السكاكي، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، مركز جيل البحث العلمي، العدد٣٢، ٢٠١٧